الاب غُدفريد زمّوفن

بقلم الاب اسكندر طوران اليسوعي

في اول ايلول الماضي فاضت على مهل ، في كلية القديس يوسف ، روح الاب غدفريد زمّوفن اليسوعي بعد حياة طويلة ناهزت الثمانين عاماً .

وليس الاب زمّوفن رجلًا مجهولًا في بلادنا ، سواء كان لدى تلامذته العديدين الذين تبدّلوا في صفّه ، على مدّة ثلاثين سنة ، يدرسون العلوم الطبيعية والرياضية ، او لدى قرّاء مجلة « المشرق » الذين طالما استفادوا من مقالاته النفيسة في اول عهدها .

وليس من الانصاف ان يخمد ذكره في فكر اللبنانيين ، وهو من العلماء الذين وقفوا حياتهم الدرسية في سبيل لبنان ؛ تاركاً مؤلّفاً اغدق عليه الاختصاصيون اطيب الثناء ، الا وهو كتاب « جيولوجية لبنان » . درس فيه انواع طبقات الارض المختلفة في بلادنا فعاد لهُ الفضل بتقرير معرفتها وتعيين اعمارها المتباينة ، بعد ان كان الاختلاف في هذا الامر مستحكماً بين العلماء الاوربيين المختلفي الجنسيّات من فرنسويين والمانيين وايطاليين وانكليز . فانهم درسوا في ظروف شتى طبقات الارض اللبنانية ، ولكنهم لم ينتهوا الى قول فصل في زمن تكوينها ، قبل ان ظهرت آراء الاب زمّوفن .

ومن المعلوم ان تقرير زمن طبقةٍ من طبقات الارض يستند الى ما يوجد فيها من المتحجّرات (fossiles) والمطمورات المختلفة الخاصّة بها ، اي التي لا توجد في غيرها . فصرف مؤلف « جيولوجية لبنان » اهتمامه الى جمع هذه المطمورات حتى حصل منها على شيء كثير وافر التنوّع عثر عليه في نقاط مختلفة من لبنان . ثم اجتهد ، بواسطة كثير من الاختصاصيين الفرنسويين الذين كانوا على صلات متتابعة معه ، حتى قابل المتحجّرات اللبنانية بمتحجرات البلاد المختلفة المحفوظة في متاحف اوربة . فكان لهُ من ثمّ وسيلة يقابل بها انواع طبقات الارض في لبنان بانواعها المدروسة غاية الدرس في اوربة . وهكذا تمّ لهُ ان يحل تلك العقدة

التي كانت تجعل الخلاف بين آراء علماء اوربة فيما يختص بعمر الارض اللبنانية. وكانت نتيجة ابحاثه ان اقدم ارض معروفة في لبنان هي من العصر الجوراسي (Jurassique)

ومما امتازت به ابحاث الاب زمّوفن عن ابحاث زملائه من علماء الغرب طول المدّة التي كان في وسعه استعمالها للتحقيق والتدقيق. فان ما كان يخصصه رحّالة الاجانب من الوقت لدرس جيولوجية لبنان لم يكن يتجاوز بضعة اشهر. اما الاب زمّوفن فتمكّن، بوجوده استاذًا في كلية القديس يوسف على مدة ثلاثين سنة، من تخصيص فرصه المدرسية طول تلك المدّة لزيارة انحاء لبنان وجمع الوثائق اللازمة من كل الجهات. حتى انهُ لم يترك نقطة يهمه امرها الّا تفقدها من البقاع الى البحر، ومن نهر القاسمية جنوباً الى النهر الكبير شمالًا. واي قرية لم تشاهد هذا الراهب، حاملًا كيس السفر على كتفه، ومعولًا صغيرًا في يده، يقطع السهول، والاودية، والهضاب، والجبال، حتى اذا لفتت نظره حصاة صغيرة او قطعة من صخر، التقطها فلفها بورقة وكتب عليها اسم المحل الذي وجدت فيه. وكم من مرّة كان عليه ان يعاود صعود وادٍ من قعره حتى قنّته كي يتمكن من وصف جميع طبقات الارض التي كشف عنها السيل غشاءها السطحي.

ولم يكن عمله ينتهي بعد هذه الرحلات. بل انه كان يتابع دروسه في غرفته فيرتّب جميع غنائمه ويدرسها ويحللها.

هذا ما يشرح ما نراه في كتابه النفيس من التصاوير المتعددة لجميع طبقات الارض في لبنان. وكان هذا العمل قد قارب الانتهاء. اذ شهرت الحرب العامّة. فعاد اليه صاحبه بعد الحرب ورتّب ما كان باقياً قيد البحث. ثم اراد تحقيق بعض النقاط الغامضة، فقام برحلات جديدة ازالت من عقله كلّ شك. فتمكن اذ ذاك من طبع المؤلّف النفيس مع خارطة جيولوجية لبنان مُيّزت فيها كل طبقة من الارض بلون خاصّ يدلّ على تركيبها ودرجة قدمها. وقد ترك لنا عدا ذلك :

١ — مجموعة متحجّرات لبنان مرتّبة على اختلاف طبقات الارض مع

ايضاحات تُشير الى نوع المتحجرة ومصدرها.

٢ — مجموعة موضحة ايضاً لمطمورات الأسماك في ساحل علما.

٣ — مجموعة اخرى لمطمورات الأسماك في حاقل (محافظة جبيل)

على ان اعمال الاب زموفن لم تنحصر في محيط الجيولوجية فحسب ، بل تجاوزتها الى التفتيش عن الوثائق لعلم ما قبل التاريخ . فكان اول عالم قام في لبنان بابحاث متتابعة في هذا العلم.

ابتدأ سنة ١٨٩٠ بحفريّات في مغارة من وادي انطلياس قريبة من القرية. فاكتشف كثيرًا من الادوات الظرّانيّة المنحوتة وعظام الحيوانات ، المعاصرة سكان لبنان في الزمن السابق للتاريخ.فكوّن منها آثارًا نفيسة يراها المطالع في مجموعة نشرها بعد ذلك بسنوات وسمّاها « فينيقية قبل الفينيقيين »

ثم قام بحفريات وتنقيبات غيرها في الهضبات المجاورة لمصبّ نهر الكلب وفي مغاور النبع في جعيتا . ثم انتقل الى نهر ابراهيم ، فنهر الجوز ، فعدلون ، فنهر الزهراني ، فرمال بيروت.وقد توفّق في كلها ، وترك مجموعة ظرّانيّة لكلّ من هذه المحطّات.

وترك ايضاً مجموعات من عظام حيوانية وجدها مع الادوات الظرّانيّة المنحوتة . وتلك العظام آثار لحيوانات انقرض اكثرها من لبنان . ولكنها كانت تعيش فيه في العصر الذي عاش فيه شاغلو تلك الادوات الظرّانيّة ، واهمّها الوعل الكبير ، والخنزير البرّي ، والدبّ ، والكركدنّ ، والثور الوحشي ، مع ثلاثة انواع من الأيل.

كان الانسان السابق للتاريخ يصيد هذه الحيوانات ، ولا سلاح لهُ سوى الحجر الصوّاني الذي يحدّده ويستعمله كالفأس او يرشقه كالسهم فيرمي فريسته ، فيأكل لحمها ويطرح حول مسكنه عظامها التي تراكمت على مرور العصور،حتى وصل الينا ما قوي منها على احتمال تقلّبات العناصر الجوية ، وهي الاسنان والفكوك ، فعرفنا منها انواع الحيوانات العائشة في ذاك الزمان . وهي ، كما يظهر ممّا تقدّم ، مختلفة جدّ الاختلاف عن الحيوانات الحاضرة.ولا عجب في ذلك بعد ان اضمحلّت الغابات الكثيفة التي كانت تغطّي جبال لبنان